الأستاذ والعملية التعليمية

كان من بين طلبتي في جامعة الكويت في سبعينيات القرن الماضي طالب متدين تصل درجة تدينه إلى حد التزمت ينتمي لجمعية الإصلاح الاجتماعي؛ ولذا كان الطالب هذا يختلف معي في الكثير من الاراء التي كنت أبديها والأفكار التي كنت أطرحها في صفوف الدراسة بشأن التراث والثقافة والتقاليد والأعراف ودورها في حياة المجتمع العربي، ويحاول دوماً ربط كل شيء بالدين وبالتراث الديني. وفي نهاية الفصل الدراسي، بعد أداء الامتحانات وظهور النتائج، جاء ذلك الطالب لمكتبي متجهم الوجه، جلس قليلاً من دون أن يتكلم، ثم أخذ يبكي بصوت مرتفع لم أفهم له سبباً، ما جعلني أشعر بالدهشة والحيرة. وحين توقف عن البكاء سألته عما يضايقه، وهنا قال الطالب إنه أخبر أفراد عائلته جميع أصدقائه بأنه سوف يرسب في مادة الاقتصاد الاجتماعي التي كان قد أخذها معي، لكنه فوجئ بالحصول على درجة الإمتياز في تلك المادة، كما قال أنه لم يكن يتخيل أن أعطيه درجة "ممتاز". وهنا قلت له إنني لم أعطك أو أعطي غيرك أية درجة كانت، إن كل واحد منكم حصل على الدرجة التي يستحقها، وأنت حصلت بجهدك على ما تستحق.

إن دوري كمعلم ليس عقاب طالب لإختلاف آرائه مع آرائي، أو مكافأة طالب أو طالبة لتوافق آرائها مع آرائي. إن ما أحاول القيام به هنا هو مساعدة الطلبة جميعاً على استخدام عقولهم، وليس على إقناعهم بتغيير مواقفهم وقناعاتهم. إن التدرب على استخدام العقل واتباع الأسلوب العلمي في التفكير والتحليل هو السبيل الوحيد لتحرير الإنسان والمجتمع مما يكبله من هواجس، ويساعده على تحقيق التنمية والتقدم. نعم، كنت تختلف معي في الكثير من الآراء، لكنك كنت دوماً قادراً على تقديم نصوص تدعم أقوالك، وهي نصوص ومقولات أختلف مع الكثير منها من حيث المبدأ لأنها تنطلق من أسس أيديولوجية ضعيفة الصلة بالواقع، إن لم تكن مخالفة للواقع. لكن قدرتك على استخدام عقلك بشكل منهجي، هو الذي مكنك من الحصول على درجة الامتياز في هذه المادة. خرج الشاب من مكتبي مطأطئ الرأس في حالة ارتباك، لكنه عاد بعد أيام ليخبرني بأنه تغير تماماً، ولم يعد الشخص الذي عرفته لأشهر مضت. بعد سنين علمت أنه أصبح من دعاة القومية والوحدة العربية، وتسلم منصباً مهماً في جريدة الوطن الكويتية ذات الميول القومية والتوجهات التقدمية.

إن من حق كل إنسان أن يعبر عن رأيه بصراحة، وأن يبدي رأيه فيما يقول الآخرون بأمانة ومن دون خوف، شريطة أن يحترم آراء الآخرين وحقوقهم. وفي المقابل من واجب المستمعين أن يستمعوا له ويحترموا رأيه كما يستمع لآرائهم. لكن ليس من حق أي إنسان أن يهدد غيره من الناس بعقاب في الحياة الدنيا أو الآخرة بسبب اختلاف آرائهم عن آرائه ومواقفه الفكرية، ولا أن يفسر الرأي الآخر بشكل يخدم أهدافه الذاتية ويعزز ما يؤمن به من عقائد مهما كانت قدسيتها. إنني أعتقد أن الطريقة التي تعاملت جمعية الإصلاح الاجتماعي بها مع دراساتي وأفكاري تسيء للتراث

العربي وللفكر الإسلامي على السواء، ولا تخدم قضايا الأمة العربية وحاجتها للحرية والانفتاح على علوم العصر وتقنياته. إن الإيمان المطلق بغيبيات يعني الإيمان بأشياء كثيرة إلى جانب الإيمان بالله، كالأرواح والموتى والبلهاء والأضرحة وأعمال السحر والشعوذة والشياطين والأحلام، وغير ذلك من أشياء لا علاقة لها بدين أو علم أو الخالق. إن الإنسان العادي في الوطن العربي يتجه نحو تقديم الأضاحي لأرواح موتى و"صالحين" وزيارة مقامات "أولياء" بلا عدد، والبكاء والدعاء والتوسل لحجارة تقف فوق قبور صماء لا تسمع ولا تتكلم، والتقرب من بلهاء والتبرك بهم، وكأن الله يحب البلهاء والأغبياء ويقربهم منه ويكشفهم على أسراره، ويكره العلماء والأذكياء الذين منحهم القدرة على التفكير والعطاء.

طالما آمن الإنسان العربي بالأحلام وكان على استعداد لإنفاق بعض أمواله على قراءة الحظ والطالع والفنجان وتفسير كوابيس الليل، واتجه إلى التشاؤم والتفاؤل بناء على خرافات وأقوال قديمة، وجعل قناعاته ومواقفه تعتمد على تلك الأشياء مستخدماً إياها أساساً لقرارات مصيرية فردية وجماعية، فإن العرب لن يتذوقوا طعم الحرية يوماً، ولن يعرفوا معنى التقدم ساعة، ولن يتخلصوا من التبعية للاستعمار ثانية. وعلى سبيل المثال، تتجه غالبية العرب إلى التشاؤم من "البومة"، فيما تقوم عدة جامعات أمريكية باتخاذ البومة شعاراً لها، منها جامعة رايس الشهيرة في مدينة هيوستن، لأن البومة ترمز في الحضارة الغربية إلى الجد والمثابرة. من ناحية أخرى، هناك "أولياء" في المغرب يقدسهم المسلمون واليهود، وهناك قبور لمبشرين مسيحيين وصلوا المغرب كمستوطنين مُستعمرين يؤمها المسلمون للبركة والشفاء. أفليست هذه تصرفات وقناعات ترتبط بغيبيات ومغالطات بسبب الجهل وعدم الدراية؟ وما علاقة هذه التوجهات والمواقف بالدين والوحي، أو بالفكر والعلم والمنطق؟

لقد كان حال أوروبا في العصور الوسطى وحتى بداية القرن الخامس عشر شبيها بحال العرب الذي بدأ في القرن الرابع الهجري. وفيما وصل الأوروبيون والغرب عامة إلى قيادة عمليات التطور والتقدم في مختلف نواحي الحياة، ما يزال العرب ومعظم المسلمين يراوحونهم في مكانهم. نعم هناك بعض التطور في المواقف من العلم والتراث ودرجة الوعي ونوعه، لكن معظم التطور جاء في سياق قيام الغرب وأنظمة الحكم العربية بتزييف وعي الإنسان العربي. وهذا تسبب في اغتراب الإنسان العربي عن وطنه وتراثه وعلوم العصر والغوص في متاهات غيبيات وأقوال قدماء عاشوا وماتوا دون أن يعرفوا علما من علوم العصر الذي نعيشه ودون أن يشاهدوا تلفزيونا أو يستمعوا لراديو أو يتخيلوا التلفون أو الكمبيور او السيارة أو الطائرة، دع عنك الغواصات والصواريخ واختراق الفضاء وصولا إلى القمر والمريخ.

أن وظيفة الأستاذ هي قيادة تلاميذه نحو التفكير في كافة أمور الحياة رغم تعقيداتها، بما في ذلك التفكير في المستقبل وتحدياته التي تزداد يوما بعد يوم، وليس في التراث والماضي. فالماضي هو اللحظة التي نتجاوزها كل لحظة،

والحاضر هو محطة نقف عندها لحظات معدودة قبل أن ننتقل إلى المستقبل. كما أن مصائر الشعوب والأمم لا تتقرر في البكاء على الأطلال والتحسر على فرص ضاعت في الماضي البعيد أو القريب، وإنما في التفكير المنطقي، باستخدام العقل والعلم وتجربة الإنسان عبر التاريخ، لتجاوز الحاضر بكل ما له وعليه، وصنع مستقبل يحقق للشعوب المعنية ما ترنو إليه من نهوض وتقدم وتحرر.

بروفسور محمد ربيع

www.yazour.com